الفصل الثانى

نشأة التصوف .. وتطوره

تحدثنا فى الفصل السابق .. عن أصل كلمة التصوف .. وعرضنا مفهومه واصطلاحاته عند الصوفيين .. والتزمنا ــ فى عرضنا لهذه الأفكار والاصطلاحات ــ الأمانة التامة ، والحيدة والموضوعية الكاملتين ، فلم نتدخل فى السياق الا حين يعترضنا من المواقف ما يفرض علينا هذا التدخل بالتعليق البسيط الذى يوضح الكلام ولا يخل بمعناه ..

وفى الصفحات التالية ــ نسوق بمشيئة الله ــ آراء لبعض العلماء الأفاضل الذين عرف عنهم الأمانة والموضوعية والحياد .. لنرى كيف يرون التصوف الاسلامى من خلال عرضهم لتاريخه ونشأته وتطوره .. ولنستمع الى حكمهم فى المآل الذى آل اليه فى عصوره المتأخرة ..

● ونقرأ أول ما نقرأ .. رأيا للدكتور ابراهيم هلال .. الذى يدلل على أن التصوف فى أصله وفى لفظه ومعناه ، متقدمه ومتأخره .. استيراد أجنبى وليس من الاسلام فى شىء !!

يقول الأستاذ الدكتور ابراهيم هلال[1] : « ... يدعو الاسلام ــ حقيقة ــ الى اخضاع الجسد أو الحس للنفس وللدين والعقل .. ولكن لا عن اتخاذ كل ما أشار به الصوفية .. وانما عن طريق الايمان بالله واليوم الآخر ، وبالرسل والأنبياء جميعهم .. والعمل بشريعتهم التى تبلورت أخيرا فى شريعة محمد ﷺ .. فى حدود الطاقة بعد أداء الواجبات .. والانتهاء عن المنهيات ..

---

(١) انظر : التصوف الاسلامى بين الدين والفلسفة ، للأستاذ الدكتور ابراهيم هلال ــ ط أولى ، ١٩٧٥ ، ص ١ وما بعدها بتصرف ..

« وبهـذا فسلوك التصوف سلوك متزيد .. يظهر فى النفس الانسانية معنوياتها .. ويحاول فى أحوال تطرفه أو تفلسفه أن يباعد بينها وبين الحياة .. والله سبحانه يقول : « **قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق** »[٢] .

« واذا كان التصوف فى الاسلام قد غلب عليه هذا الطابع فى التعريف المتقدم [وكان سيادته قد عرفه بأنه : السير فى طريق الزهد .. والتجرد عن زينة الحياة وشكلياتها .. وأخذ النفس بأسلوب من التقشف وأنواع من العبادة والأوراد والجوع والسهر .. فى صلاة أو تلاوة .. حتى يضعف فى الانسان الجانب الجسدى ، ويقوى فيه الجانب النفسى أو الروحى .. لاخضاع الجسد للنفس بهـذا الطريق .. سعيا الى تحقيق الكمال الأخلاقى للنفس .. والى معرفة الذات الالهية وكمالاتها .. وهو ما يعبرون عنه بمعرفة الحقيقة] ..

« اذا كان التصوف فى الاسلام قد غلب عليه هذا الطابع .. فان ذلك راجع الى أنه قد تأثر فى ذلك بفلسفات أجنبية عن الدين الاسلامى وعن بيئته .. سواء أكانت هذه الفلسفات فلسفات أجنبية عن البيئة الاسلامية كلها .. أو أنها أخذت من البيئة الاسلامية عن طريق الشيعة وعن طريق الفلاسفة الاسلاميين ..

« فالتصوف الاسلامى قد خلط بالدين الاسلامى ما ليس منه فى جانب العبادة والمعرفة .. وأصبحت معرفة الصوفية فى عمومها معرفة فلسفية أو اشراقية لا معرفة دينية فى كشفها ، الى محض التمسك بالكتاب والسنة ..

« والاشراق — بالمعنى الفلسفى الصوفى — هو تلقى العلم الغيبى ، والمعرفة الالهية عن العالم العلوى الروحانى بعد سلوك طريق التصوف من رياضة روحية ومجاهدة للنفس بحيث تصفو من الكدورات البشرية .. وحينئذ ينعكس عليهـا — أو يشرق فيهـا — من العلوم والمعارف ما هو منقوش فى العالم العلوى الروحانى من الملائكة أو العقـول

---

(٢) الأعراف : ٣٢

والنفوس الفلكية .. والاشراقيون هم الذين يرون أن المعارف تحصل عن هذا الطريق ويطلبونها به [هامش] .

« فالاشراق الفلسفى الذى عرف من قبل عند سقراط وأفلاطون وأفلوطين .. وغيرهم من فلاسفة اليونان والهنود والفرس .. والذى يصل فيه المرء بعد مرحلة التجرد والرياضة والعبادة الى مرحلة الكشف والاخبار عن المغيبات .. هو غاية التصوف الاسلامى فى منهجه الفلسفى.

« وقد شاع هذا المنهج بتلك الغاية الاشراقية فى البيئة الاسلامية .. وان كنا وجدنا المنهج السنى والأصول الاسلامية .. بجانب ذلك المنهج الاشراقى .. تعيش معه جنبا الى جنب عند كثير من المتصوفة .. فأفادوا فى علم الأخلاق وفى أصول تربية النفس .. وفى مناهج البحث فى العلوم » ..

وهكذا .. ترى أن التصوف الاسلامى حين أراد اخضاع الجسد للنفس يسلك طريق الزهد والتجرد من زينة الحياة وشكلياتها .. ويأخذ النفس بالتقشف والعبادات والأوراد والجوع والسهر .. حتى يضعف الجانب الجسدى فى الانسان ويقوى فيه الجانب النفسى والروحى ..

ولكنه حين أراد ذلك .. خلط بالدين الاسلامى ما ليس منه فى جانب العبادة والمعرفة .. اذ اعتقد أن الطريق الى تلقى العلم الغيبى والمعرفة الالهية لن يتأتى الا عن الرياضة الروحية ومجاهدة النفس حتى تصفو من الكدورات البشرية .. فينعكس عليها من العلوم والمعارف ما هو منقوش فى عالم الملائكة !!

ولكن التصوف الاسلامى — فى سبيل هذه الغاية — مال عن طريق العلوم الشرعية ، واحتضن بدلا عنه أفكار سقراط وأفلاطون وأفلوطين .. وبهذا أصبحت المعرفة الصوفية معرفة فلسفية اشراقية لا معرفة دينية .. وظهر لأول مرة فى الفكر الاسلامى اصطلاح أهل الحقيقة .. فى مقابل أهل الشريعة المتمسكين بالكتاب والسنة ..

ويدلل الدكتور ابراهيم هلال على تأثر التصوف الاسلامى بالفلسفات الأجنبية فيقول :

« أدى ولع الصوفية المسلمين بالمنهج الاشراقى .. أن أخذوا

المعرفة عن مخالفيهم من أبناء الديانات الأخرى التى رثت وبليت ودخلها التبديل والنقوص .. فهذا ابراهيم بن أدهم يفصح لنا عن أصـــول التصوف وغايته فيقول : « تعلمت المعرفة من راهب يقال له سمعان » !!

« ويحدثنا أبو يزيد البسطامى ، أنه سافر مرة حاجا .. فلقيه القطب فى الطريق وأمره أن يعود قائلا له : ان الله هو ما تراه فى بعين قلبك .. لأنه اختارنى بيتا له .. فاذا رأيتنى فقد رأيته ، وطفت حول الكعبـــة .. واذا عبدتنى فقد عبدته وسبحت له .. فلا تظنن أننى شىء غيره » !!

لم يكتف التصوف الاسلامى بالأخذ عن الفلســـفة اليونانية ، انما أخذ أيضا عن المسيحية فاعتنق نظرية الحلول .. ولهذا نراه يصل بتعظيمه للأولياء والأقطاب بعد أن طور من هذا التعظيم الى أن أصبح أقطابه مجلى من مجالى الله سبحانه وتعالى بعد حلوله فيهم — تعالى الله عن ذلك — وهذه أول اشارة الى اعتناق التصوف الاسلامى لمذهب الحلول أو وحدة الوجود ..

لقد كانت نظرية الحلول ذائعة ذيوعا عظيما فى أنحاء فارس حتى زمن الساسانيين .. وكانت هذه النزعة الفارسية الهندية من خصائص التفكير الشرقى .. بينما كانت النزعة « الثيوسوفية » — أعنى النزعة نحو المعرفة الالهية — من خصائص التفكير اليونانى ..

وكأنما لم يقنع التصوف الاسلامى باعتناق الفكر اليونانى فأضاف اليه الفكر الشرقى متمثلا فى فكر فارس والهند قبل الاسلام .. فأصبح المزاج غريبا تماما عن الفكر الاسلامى المنادى بتوحيد الألوهية ..

ويدلل الدكتور هلال على ذلك بقوله : « على أن ثمة شبها ظاهرا بين بعض العقائد والنزعات الفارســـية القديمة ، وبين بعض التعاليم والمذاهب الصوفية الاسلامية .. فالزهد فى التصوف الاسلامى يشبه الزهد والرهبنة المانوية .. كما يشبه الزهد والقناعة والنهى عن ذبح الحيوان فى الديانة المزدكية ..

« ولقد شاعت العقائد فيما شاع بين المسلمين من تراث الفرس القديم ، ووجدت من الشيعة من اعتنقها وتعصب لها .. ومن الصوفية من تلقاها بالقبول وتأثر بها عن قصد أو غير قصد »[٣] .

ويحدثنا الدكتور ابراهيم هلال عن « التصوف الملامتى » فيقول :

« فاذا انتقلنا عن هؤلاء وعن معرفتهم ، وعن فنائهم عن أنفسهم .. وذهبنا الى أبى عثمان الحيرى (ت ٢٩٨ هـ) ، وأبى عمرو بن نجيد (ت ٣٦١ هـ) — وهما من الملامتية — رأينا نمطا آخر من التصوف ، وهو الفناء عن الأعمال .. أو الاستهتار فيها جلبا للملامة وتعرضا لذم الخلق بدلا من مدحهم .. أو الاتجاه دائما — من جانب الشخص نفسه — نحو النفس باللوم والشك فيها دائما — والنظر اليها نظرة التقصير ..

« ونستطيع أن نتبين أن هذا التصوف موجود فى كلا الاتجاهين : الفناء عن النفس والفناء عن الأعمال .. واذا اجتمع هذان الاتجاهان فى شىء ، فانما يجتمعان فى السلبية نحو دين الله ومجتمعه .. فأحدهما لا يبغى من أعماله الا الوصول الى الله أو الاتحاد به والبعد عن الناس .. والآخر لا يبغى من أعماله الا الوصول الى مذمة الناس له على خلقه وعمله ، والعمل على اشاعة الفساد واظهاره بينهم »[٤] .

ونقول : وفى ظل المذهب الملامتى .. رأينا من بين المتصوفة من يسقطون التكاليف الشرعية بحجة وصولهم الى الله واتحادهم به .. فمن ثم لا حاجة بهم الى التكاليف الشرعية الخاصة بالعوام من الناس ..

ويعقب الدكتور هلال بقوله : « نستطيع اذن .. رد هذا كله الى مصادر غير اسلامية .. منها ما تقدم فى تشكيل المذهب الملامتى .. ومنها ذلك العنصر اليونانى والمذهب الغنوصى .. وقد أثر كل منهما تأثيرا كبيرا فى الفكر الفلسفى والدينى فى الاسلام ، وقبل الاسلام وخاصة فى التصوف .. والظاهرة الكبرى التى تؤكد لنا صلة التصوف

---

(٣) المرجع السابق ص ٨ . (٤) نفس المرجع ص ١١ ، ١٢

بالمصادر الأجنبية ـ لسيطرتها على اتجاه المتصوفة عموما ـ هى ما نراه من المغالاة فى الاهتمام بالعرفان »[٥] .

وعن « العرفان » .. أو « المعرفة عند الصوفية » .. يحدثنا الدكتور هلال فيقول مدللا على أجنبيته عن الفكر الاسلامى ، وبالتالى على أجنبية التصوف عن الاسلام :

« ... ومما يحملنا على الجزم بوجود أثر للفلسفة اليونانية فى التصوف الاسلامى .. أن نظرية « المعرفة » فيه ظهرت فى غربى آسيا ومصر .. فى بلاد تأصلت فيها الثقافة اليونانية أحقابا طويلة .. وكان بعض المبرزين فى الكلام فيها من أصل غير عربى ..

« وسأكتفى هنا بذكر المعرفة كمثال واحد يوضح ما ذكرناه .. فان ما يسميه الصوفية « المعرفة بالله » ويعتبرونه من أخص صفاتهم .. يرادف فى اللغة اليونانية كلمة « جنوسيس » التى معناها : العلم بلا واسطة الناشىء عن الكشف والشهود .. وقد عرفها هذا التعريف كثير من صوفية القرن الثالث .. بل ان كلمة تصوف نفسها ليست اسلامية »[٦] .

ثم يقول : « ... أما أجنبية التصوف عن الاسلام بالنسبة للتسمى بتلك الكلمة .. فانها فى أصل مضمونها القديم قبل أن تدخل الى الأوساط العربية أو الاسلامية .. لم يكن يراعى فيها لبس الصوف ، أو القوم الذين يلبسون الصوف .. وانما كان يراعى فيها طلب النفاذ الى الأسرار الخفية أو المعانى الكونية المغيبة .. واتخاذ الطرق للوصول الى ذلك ..

« ... ان التصوف فى ذاته ليس جديدا فى الاسلام .. وانما هو قد عاش فى كل بلد ذهب اليه الاسلام .. ونما وترعرع قبل أن يفتحه المسلمون .. فهذا الاتجاه الباطنى ، والبحث فيما وراء الطبيعة عن خفايا الكون ، ومحاولة الوصول اليها بطريق المجاهدة النفسية

---

(٥) نفس المرجع ص ١٤ (٦) المرجع نفسه ص ١٧

والجسمية .. لا يعرفه الاسلام ، ولا يعتبر من سار فى هذا الطريق أنه يسير على صراطه المستقيم .. وانما هو استيراد من خارج الاسلام فى المخبر والمظهر ، أو فى الحقيقة والشكل ..

« الحقيقة أو الاتجاه .. أخذ عن أديان مختلفة سماوية وغير سماوية ..

« والشكل أو المظهر .. أخذ عن زى الرهبان المسيحيين .. فجاء علماء العربية فنسبوهم الى الشكل الذى هو ألصق شىء باتجاههم — هذا اذا قلنا ان الكلمة فى لفظها عربية — ومن المحتمل أن تكون أجنبية وجدت منذ القدم علما على هؤلاء الذين يريدون أن يشغوا هوى نفوسهم من ناحية الكون والحياة .. غير مقتنعين بما جاءت به الأديان ، أو جريا وراء الأفكار الفلسفية أو الكهنوتية ..

« ومن الراجح أن تكون كلمة تصوف مشتقة من كلمة «ثيوصوفية» اليونانية التى كانت تطلق عند قدماء اليونان على مذهب روحى يعتنقه النساك والزهاد والسالكون قبل الاسلام بعدة قرون .. فكانوا ينأون بجانبهم عن الدنيا .. ويلجأون الى أنواع من الرياضات الروحية والعبادة مما اقتبسوه عن أنبيائهم ورسلهم ، حبا فى التقرب بالروح من خالقهم ، وتلقى الحكمة والمعارف القدسية عنه تعالى »(٧) .

والخلاصة : « أن التصوف الاسلامى : أوله المسمى بالزهد ، وآخره المعروف بالتصوف .. انما هو استيراد من خارج الاسلام ، وليس من صميمه ..

« وأن تسميته بالزهد فى أوله .. انما هى بالنسبة الى جانب منه ، مثل تسمية العباد والنساك والجوعية المتقدمة والحكماء ..

« وأن كل هذه أسماء ملحوظ فيها جانب من جوانب التصوف ، وهو يجمعها كلها .. وكل منها يتطابق معه فى وجه من وجوهه أو مذهب من مذاهبه .

---

(٧) المرجع السابق ص ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٠ .

« ومن هنا .. يمكن أن ننظر الى تلك الكلمة « صوفى » و « صوفية » فى اطلاقها المبكر قبل الاسلام ، وبعده فى القرن الأول — فى المجال العربى — على جماعة المتعبدين أو الفرد العابد — وأن لا نكذب تلك الروايات التى تقول باطلاقها فى اللغة العربية فى ذلك الوقت المتقدم على الاسلام — على أنها من باب الكلمات الدخيلة فى اللغة العربية .. كما نعرف تطرق تلك الألفاظ اليها من القديم فى لغات الأمم المختلفة .. ثم جاء المتأخرون واعتبروها منسوبة الى الصوف فى أصح أقوالهم .. خاصة وأن لباس الصوف شاع فى عصر الجمع والتدوين والتأليف ..

« على أن اطلاق هذه الكلمة فى العصر الأول على العباد والنساك ليس ببعيد .. اذا عرفنا أن اتصالا حقيقيا نشأ فى العالم الاسلامى اتصل فيه المسلمون بالفلسفة اليونانية فى العقود الاسلامية الأولى .. ذلك أن « ابن كثير » — وهو مؤرخ ممتاز — ذكر لنا فى بعض النصوص أن علوم الأوائل انتشرت فى العالم الاسلامى فى القرن الأول الهجرى .. والمقصود بعلوم الأوائل : الفلسفة اليونانية وعلم النجوم وغيرهما من معارف يونانية لم يوافق عليها العقل الاسلامى ..

« فلا مانع أن تكون هذه الكلمة قد استوردت فى ذلك الوقت المتقدم الذى غزت فيه علوم هذا الصنف من الأجانب العالم الاسلامى فى ذلك الوقت أو قبله .. اذا تذكرنا أيضا أن الأديرة والكنائس كانت منتشرة فى الجزيرة العربية منذ القدم ، وأن العرب لم يكونوا بمعزل منهم ، وكثير منهم خالطهم واعتنق دينهم .. فضلا عن أن العرب كانت لهم صلات تجارية بالعالم المتمدين كله فى ذلك الوقت ، والذى شاعت فيه ديانات سماوية وغير سماوية ، وفلسفات دينية وميتافيزيقية .. كما كانت هناك الى جانب تلك الصلات التجارية صلات حربية وسياسية بين العالم اليونانى من قديم .. حين غزا الاسكندر بلاد الشرق وبين العالم الرومانى والفارسى والحبشى بعد ذلك .. حتى ظهور الاسلام »[٨] ..

---

(٨) المرجع نفسه ص ٣١ ، ٣٢

ومن هنا نصل الى النتيجة الواضحة .. « أن التصوف فى أصله ، وفى لفظه ومعناه — متقدمه ومتأخره — استيراد أجنبى ، وليس من الاسلام فى شىء » ..

* * *

● **تصوف الملاحدة :**

اشتهر نفر من الصحابة — رضوان الله عليهم — بالزهد ، كأبى ذر الغفارى ، وسلمان الفارسى .. كما اشتهر به الحسن البصرى ، وعامر بن قيس من التابعين .. وكانوا يصرفون نشاطهم الى تزكية النفس عن نقائصها وصفاء القلوب الى خالقها .. وكانت أعمالهم مشروعة خالصة ، وأقوالهم كانت رشيدة واضحة ، لا عوج فيها ولا التواء ..

يقول الحسن البصرى : « حادثوا هذه القلوب بذكر الله ، فانها سريعة الدثور .. واردعوا هذه النفوس فانها طلعة تنزع الى الشر عادة » .

ويقول ابن قيس : « لقد أحببت الله حبا سهل على كل مصيبة ، ورضانى بكل قضية .. فما أبالى مع حبى له ما أصبحت عليه وما أمسيت » ..

كان هؤلاء النفر من الصحابة والتابعين .. يعملون برسالة الاسلام ، ويعبرون عن الهدف الأخير لها ، وهو : حمل النفس على الاطمئنان وعلى التحمل ، وعلى السير فى الحياة فى ثقة ، لأنها تستعين بالله ، وتسلك طريقه فيما تسير نحوه من غاية ..

وعندما لقب الزهاد بالصوفية فى النصف الأول من القرن الثالث الهجرى .. وكان يتقدمهم أبو هاشم الصوفى (ت ١٥٠ هـ) — وهو أول من لقب من الزهاد بالصوفى — كان الزهد يسير على قواعد الدين ، ورعاية آدابه وسلوكه ..

وفى ذلك القرن — الثالث الهجرى — أصبح التصوف مذهبا فنيا ، له قواعد للمحاجة ومصطلحات اختص نفسه بها .. وظهر من بين صفوفه أبو القاسم الجنيد الذى كان يقول : « مذهبنا هذا مقيد بالكتاب والسنة » .. كما ظهر الفضيل بن عياض ، وابراهيم بن أدهم ،

ومعروف الكرخى ، وغيرهم .. ممن كان يطلق عليهم « صوفية أهل العلم » .. لأن تصوفهم كان على النمط الموجود فى كتاب « الزهد والورع » لأحمد بن حنبل .. وهو زهد الاسلام لا تصوف الفلسفة .. ولهذا لم يتعرض لهم ابن تيمية بالنقد فى كتابه « الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان » ..

ولكن ابن تيمية — رحمه الله — انتقد نوعا خاصا من التصوف .. ذلك هو النوع الذى عرف به محيى الدين بن عربى ، وابن سبعين ، وعمر بن الفارض ، ومن تتلمذ عليهم من معاصريه .. فقد كان تصوفهم ينادى بعقيدة « الوحدة » — التى لا يزال يقول بها بعض المتصوفة — ولهذا أطلق ابن تيمية على تصوفهم اسم « تصوف الملاحدة » ..

وعن هذا النوع من التصوف — تصوف الملاحدة — يحدثنا المرحوم الدكتور محمد البهى .. فيقول :

« تصوف الملاحدة .. هو ذلك الضرب الذى انحدر اليه الاتجاه الصوفى فى الجماعة الاسلامية .. بعد أن قبل فى شروح المبادىء الاسلامية عقائدا وفكرا ترجع الى المسيحية والأفلاطونيه الحديثة والبرهمية ، وبعض الديانات الفارسية القديمة كالمانوية ..

« وتصوف الملاحدة .. يقول بالتثليث .. يقول « بعالم الله ، وكلمة الله ، والفراسة » على أنه عالم الأزل والطهر !!

« أما الله — فى تصورهم — فهو : **« نور السموات والأرض »**[٩] .

« وأما كلمة الله .. فهو محمد عليه الصلاة والسلام ، أو المخلوقات !!

« وأما الفراسة .. فهى « الالهام الصوفى » .. وصاحبها هو « المريد » أو « الانسان الكامل » .. أو « المتحد بالله » .. وهى التى يعبر عنها القرآن الكريم — فى نظرهم — بقوله : **« ونفخت فيه من روحى »**[١٠] .. والتى يقول فيها الرسول عليه الصلاة والسلام : « اتقوا فراسة المؤمن ، فانه ينظر بنور الله » ..

---

(٩) النور : ٣٥ (١٠) الحجر : ٢٩ ، وسورة ص : ٧٢

« ويقول تصوف الملاحدة بعقيدة « الوحدة » .. أى عقيدة شمول الألوهية .. وهى التى تترجم فى هذه العبارة : « وجود هذا العالم هو عين وجود الله ، وليس هناك وجود قديم خالق ووجود حادث مخلوق » !! .. أى لا انفصال بينهما !!

« كما يقول بعقيدة « الحلول » .. وهى اعتقاد أن يحل الله فى بعض مخلوقاته من « المريدين » أو « الواصلين » .. فالسالك اذا أمعن فى السلوك ، وخاض لجة الوصول .. فربما يحل الله فيه كالنار فى الفحم !!

« وعن أبى الحسين الحلاج من قوله : « أنا الحق ، وما فى الجبة الا الله » (!!) ، وقد قتل من أجل هـذه المقالة فى خلافة المقتدر عام ٣٠٩ هـ بعد أن أفتى الفقهاء والصوفية المستقيمون بخروجه عن الاسـلام ..

« ويعبر أبو يزيد البسطامى (ت ٣٣٤ هـ) عن الواصل الذى اتحد بالله : بالانسان الكامل .. ويشرحه بقوله : « الخلق أحوال ، ولا حال للعارف لأنه محيت رسومه وفنيت هويته بهوية غيره وغيبت » !!

« ويقول : « لأن تحس أنك واحد مع الله ، خير من عبادة الناس جميعا من بدء الدنيا الى غايتها » !!

« والحلول .. أو الاتحاد بهذا المعنى .. قاصر على المتفوق فى درجة التصوف ، وهو « العارف » أو « الواصل » من بين درجات الصوفية !!

« والحلول أو الاتحاد .. هو الذى يهىء ما يسمى بالفراسة .. وهو الذى يجعل الانسان العارف جزءاً من ذلك الثالوث المقدس : « الله ، وكلمة الله ، وصاحب الفراسة » .. ويرفع عنه بشريته ، ويسقط بالتالى التكاليف الشرعية عنه !!

« والطريق الى هـذا الحلول والاتحاد .. هو احياء الضمير ، والكشف ، والممارسة .. وأما القرآن والسنة فانهما لعوام الناس » !![11]

---

(١١) الفكر الاسلامى فى تطوره ، للدكتور محمد البهى ، نشر مكتبة وهبة ، ص ٣٠ وما بعدها ..

[وهكذا تحول التصوف من مذهب يتقيد بالكتاب والسنة .. الى مذهب غريب تماما عن الاسلام .. مذهب ينادى بالوحدة التى تقول بشمول الألوهية .. و « بالحلول » الذى يقول بحلول الله تعالى فى المريدين والواصلين !!

لقد رفعوا عن « العارف » بشريته بعد أن ابتدعوا ثالوثهم المقدس : « عالم الله ، وكلمة الله ، والفراسة » .. أى نور السموات والأرض ، والمخلوقات ، والالهام الصوفى الذى اختص به المريد المتحد بالله .. فأصبح انسانا كاملا !!

لقد أصبح القرآن والسنة — طبقا لنظريتهم — لعوام الناس .. فما الداعى الى التكاليف الشرعية بعد أن اتحد المريدون بالخالق — سبحانه — عن طريق احياء الضمير ، والكشف ، والممارسة !!

فلتسقط التكاليف الشرعية عن أصحاب الفراسة بعد أن ارتفعوا عن بشريتهم !!

أهذا هو توحيد الاسلام] ؟ !

ثم يقول فضيلة الدكتور محمد البهى :

« ويقول « تصوف الملاحدة » بعقيدة « التجلى » ، أو « الفيض » فى صدور العالم عن الله !!

« وطريق الفيض هو الحب .. فالله تعالى أحب نفسه ، وعن هذا الحب لنفسه خلق آدم .. وهكذا : كل موجود بعده ينشأ عن حبه لنفسه موجود آخر !!

« ويروون حديثا قدسيا فى هذه العقيدة : « كنت كنزا مخفيا ، فأحببت أن أعرف ، فخلقت الخلق ليعرفونى » !!

« والوحدة .. بمعنى « الشمول الالهى » وعدم انفصال الكون عن موجده والخلق عن الخالق .. عقيدة برهمية !!

« والحلول .. على معنى حلول الله فى انسان ما .. عقيدة مسيحية !!

« والاتحاد مع الله .. على أنه غاية يصل اليها الانسان عن طريق الكشف والممارسة .. فكرة أفلاطونية حديثة !!

« وعقيدة الفيض والتجلى فى الصدور — أى فى صدور الموجودات عن الله — من فكر الأفلاطونية الحديثة دخل فيها عنصر الأرسطية !!

« فعلى غرار « العلم » فى مدرسة أرسطو فى تصوير وجود العالم بعضه عن بعض .. كان الحب لدى الصوفية فى تصوير الشيء نفسه ، بالاضافة الى الفيض !!

« فالمدرسة الأرسطية .. اكتفت « بالعقل » فى تصوير نشأة العالم عن العلة الأولى ..

« والأفلاطونية الحديثة .. أستخدمت بدل العقل فكرة الفيض فى تصوير ذلك ..

« والتصوف الاسلامى الأخير .. مزج بين الطرفين ، وعبر عنهما بالتجلى ، والحب !!

« عقيدة التثليث هنا ترجع الى الأفلاطونية الحديثة .. ولكن تأثرت بالشرح المسيحى لعالم الأصول فى تلك المدرسة .. وهو العالم الذى يتكون من : الأول ، والعقل ، والنفس الكلية ..

« والشرح المسيحى لهذا العالم الأصيل .. لاءم بين موجوداته الثلاثة وبين « الله ، وكلمة الله ، والروح القدس » — التى وردت فى نصوص المسيحية ..

« فاذا ما عمل التصوف المتأخر .. على خلق عالم مقدس ، أزلى أبدى .. فانه سيكون عالما مثلثا قطعاً ، طالما يؤمن بالله ، وبرسوله — ﷺ — بالاضافة الى ما يضفيه على العارف من صبغة الاجلال والتقديس »[١٢] !!

[لقد قالوا بالتثليث حين ابتدعوا « عالم الله ، وكلمة الله ، والفراسة » !!

---

(١٢) نفس المرجع السابق ..

ثم قالوا بالوحدة .. وبالحلول !!

وها هم يقولون بالتجلي .. أو الفيض !!

فالعالم صدر عن الله تعالى بأن أحب الله نفسه ، وعن هذا الحب لنفسه خلق آدم .. وعن حب كل موجود لنفسه ينشأ موجود آخر !!

وهكذا .. استقوا فكرهم من منابع العقائد الغريبة تماما عن الاسلام .. فأخذوا الوحدة عن البراهمة ، والحلول عن المسيحية ، والاتحاد عن اليونانية الحديثة .. وأخيرا مزجوا بين فكر أفلاطون وأرسطو فابتدعوا عقيدة التجلي !!

ومرة ثانية نقول : هل هذا هو توحيد الاسلام] ؟ !

ثم يقول فضيلة الدكتور محمد البهى رحمه الله :

« أما اسقاط التكاليف الشرعية عن جميع الصوفية فى درجاتهم المختلفة .. فهو نتيجة لاعتقاد أن صدور العالم عن الله بطريق الفيض ، وعن حب الله لنفسه .. فليس هناك مكان للقدرة والارادة فى هذا الصدد .. والتكليف الشرعى صـــورة لارادة الله .. فاذا انعدمت الارادة : انعدم التكليف !!

« وأما سقوط هذه التكاليف عن طبقة المعارف .. فالاعتقاد بالاتحاد وعدم التمايز بين الانسان الواصل — أو الكامل — وبين الله يسقط التكليف .. لأنه الآن ليس هناك جانبان وطرفان .. أحدهما يكف ، والآخر يقوم بالتكليف !!

« ثم لمـــاذا التكليف وقد تمت الغاية ؟ فالتكليف ليس الا وسيلة لغاية .. هو رسم طريق يوصل الى غاية خاصة .. وقد بلغ الانسان هذه الغاية .. فلا معنى لرسم الطريق وطلب سلوكه !!

« ولو لم يكن من نتائج هذه العقائد الا اسقاط التكاليف .. لكانت هذه النتيجة وحدها كافية لنقد هذا المذهب .... اذ أى اتجاه فكرى أو عقيدى يسقط التكليف صراحة أو يضـــع مقدمات تستلزم اسقاطه يكون مجافيا للرسالة الاسلامية »[١٣] .

---

(١٣) نفس المرجع السابق ..

[وهكذا يستطيع ذلك الفكر الغريب أن يحقق هدفه .. وهو اسقاط التكاليف الشرعية !!

لقد أسقط هذه التكاليف عن جمهور المتصوفة — بدرجاتهم المختلفة بنظرية الفيض .. اذ لا مكان للقدرة والارادة نظرا لصدور العالم — في زعمهم — عن الله تعالى بطريق الفيض وعن حبه لنفسه .. والتكليف الشرعي احدى صور ارادة الله ، وقد انعدمت هذه الارادة طبقا لنظرية الفيض .. فلماذا التكليف !!

كما أسقط هذه التكاليف عن طبقة العارفين بنظرية الاتحاد .. فما دام العارف قد اتحد مع الله ، وأصبحا — في زعمهم — طرفا واحدا ، فلماذا التكليف ؟ !

فلتسقط التكاليف الشرعية اذن ، بعد أن تمت الغاية .. وهذا هو بيت القصيد] ..

والخطير في الأمر .. أن أصحاب هذا النوع من الصوفية — كما يقول الدكتور محمد البهي — : « لم يضيفوا هذه العقائد الى تعاليم الاسلام كشيء مجاور لشيء آخر يضاف اليه ، مع بقاء الانفصالية بينهما .. بل حاولوا أن يحملوا بعض نصوص القرآن هذه العقائد .. ويجعلوا من شرح الفيض والعقيدة التي شرح في ضوئها وحدة لا انفصال فيها !!

« والآيات القرآنية التي تعلقوا بها في تبرير اسلامية هذه العقائد الدخيلة .. هي تلك التي تشير الى قرب الله تعالى من الانسان .. مثل قوله تعالى : « **ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن أقرب اليه من حبل الوريد** »(١٤) .

وقوله : « **ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ، ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة الا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر الا هو معهم أين ما كانوا** »(١٥) .

---

(١٤) سورة ق : ١٦ (١٥) المجادلة : ٧

وقوله : « **ولله المشرق والمغرب ، فأينما تولوا فثم وجه الله** »(١٦)

« فهذه الآيات حملوها على « الوحدة » البرهمية بمعنى الشمول الالهى ، وعدم الانفصال بين الخالق والمخلوق !!

« واذا لم يجدوا بين النصوص الصحيحة ما يصح أن يحمل على عقيدة من هذه العقائد .. ابتدعوا بعض الأحاديث للتدليل بها على اسلامية العقيدة المطلوبة — كالحديث القدسى : « كنت كنزا مخفيا ، فأحببت أن أعرف ، فخلقت الخلق ليعرفونى » — كى يضيفوا الى الاسلام عقيدة الفيض .. والاسلام ينفر منها »(١٧) .

أين الوحدة فى قول الله تعالى : أنه خلق الانسان ويعلم ما تحدثه به نفسه .. فلا يخفى عليه تعالى سرائره وضمائر قلبه .. فهو تعالى أقرب للانسان من عرق العنق .. فهو أعلم به وأعرف بأحواله ، ولا يخفى عليه شىء من خفياته ؟ !

أين الوحدة فى قوله جل شأنه : أنه يعلم جميع ما فى السموات وما فى الأرض ، لا تخفى عليه صغيرة ولا كبيرة .. فكيف تخفى عنه أعمال العصاة والكافرين ؟ .. الحق أنه ما يكون من حديث وسر بين ثلاثة من خلقه الا هو مشاهدهم .. يسمع سرهم ونجواهم ، ولا يخفى عليه شىء من أسرارهم .. ولا يكون من حديث بين خمسة الا هو — تعالى — سادسهم .. ولا أقل من ثلاثة ولا أكثر من خمسة الا هو معهم اذا تناجوا .. فى أى موضع ومكان كانوا ؟ !

أين الوحدة فى قوله جل وعلا : ان له وحده ملك المشرق والمغرب ، وملك ما بينهما من الخلائق .. فحيثما تولوا وجوهكم — أيها المؤمنون فى صلاتكم فهناك وجه الله يسعكم فضله وأرضه وبلاده .. وأينما تولوا وجوهكم فى دعائكم فهناك وجه الله يستجيب لكم دعاءكم ؟ !

هل تتفق هذه الآيات — التى استدلوا بها — مع الوحدة البرهمية بمعنى الشمول الالهى ، وعدم الانفصال بين الخالق والمخلوق ؟ !

---

(١٦) البقرة : ١١٥ (١٧) المرجع السابق ص ٥٩ — ٦١

فلا عجب اذن — وهذا فكر القوم وعقيدتهم .. أن ينال التصوف الاسـلامى فى نوعه المتأخر استحسان الغرب من جانب .. وسخط المسلمين عليه من جانب آخر] ..

يقول الدكتور البهى : « كان التصوف زهدا .. فأصبح ضربا من ضروب الفلسفة .. ثم مال الى « وحدة » البراهمية ، و « حلول » المسـيحية !!

« وهذا المـآل الذى آل اليه .. هو موضع الاختلاف فى التقدير بين الاستحسان والتجريح .. [استحسان الغرب وتجريح المسلمين] .. أما استحسان علماء الغرب له .. فلأنه يميل بالاسلام نحو المسيحية .. فيبعد الاسلام عن مجال الحياة العامة ، ويقصره على الدربة النفسية وما يسمى بالصفاء الروحى للفرد .. فوق أنه يقرب الله — تعالى — بفكرة الحلول الى الانسان على نحو تأليه عيسى المسيح وجعله طبيعة مزدوجة .. الهية الباطن وانسانية الظاهر !!

« وهذا ما ينشده الغرب ويبتغيه من الدين !!

« اذ الدين فى نظره يعالج الفـرد ويضع أمامه المثل الأعلى للاقتراب منه .. هكذا يشرح الدين فى نظر الغرب اقتباسا من وضع المسـيحية !!

« أما المسلمون .. فيرون أن فكرة « الحلول » تنقض رسـالة الاسـلام فى وحدة الله وتنزيهه عن الحق وصفاته .. وهى لكونها تستتبع فكرة « التناسخ » تجعل من الله موجودا منتقلا .. وذلك يتنافى مع بعض صفاته تعالى : كالبقاء والقيام بالنفس .. فالمسلمون يرون الصوفية المتأخرة ضربا من تحريف الاسلام الى المسيحية المحرفة .. وهى مسيحية الحلولية »[١٨] ا هـ .

* * *

● ويتحدث فضيلة الشيخ محمد الغزالى عن « التوحيد » الذى

---

(١٨) نفس المرجع السابق ..

هو جوهر الاسلام .. وخرافة « الوحدة » التى أدخلت على الاسلام زورا ، وأدت الى الزعم بتسـوية المخلوق بالخالق وافناؤه فيه .. فيقرر أنهـا شرك يفسد عقيدة التوحيد .. وضلال لا أصل له فى الاسـلام ..

يقول الشيخ محمد الغزالى : « التوحيد .. جوهر الاسـلام ومظهره ، ولبابه وقشوره .. ودعامة التعاليم التى جاء بها .. بل هو رباط بنائه ، ولون طلائه ، ومعقد أصوله وفروعه ..

« وليس الاسلام بدعا فى الدعوة الى توحيد الله ..

« فرسل الله ـ قاطبة ـ بعثوا بهذا الايمان الخالص ، وجمعوا الناس عليه .. وحذروهم من كل شائبة تعكر صفوه وتطفىء رونقه : **« وما أرسلنا من قبلك من رسـول الا نوحى اليه أنه لا اله الا أنا فاعبدون »**(١٩) .

« غير أن جماهير غفيرة من البشر أبت الا أن تزيغ عن هـذا الصراط .. وأن تتشبث بأوهام سخيفة ، باعدتها عن الله ، وأحلتها البوار ..

« فكان كل نبى سبق .. يجىء بالحق ، ويناشد الأمم أن تثوب اليه .. حتى جاء خاتم المرسلين محمد بن عبد الله ﷺ ، فصدع صرح الشرك .. وخط فى شغاف القلوب عقيدة الايمان بالله الواحد ..

« وكان القرآن الكريم ـ ولا يزال ـ النداء العالى لهذا اليقين الحق ، والمجادل القوى عما يعرض له من شبه أو يلتبس به من تخليط ..

« ومن المؤسف .. أن المسـلمين أصابهم مس من داء الأمم السابقة .. فظلموا رسالتهم الجليلة بما شابوا به عقيدة التوحيد .. وبما أقحموه عليها من بدع وخرافات ..

« وهى بدع وخرافات .. تشبه ما انزلق اليه الأولون ، أو هى ترديد لمـا كان من لغو .. حذوك النعل بالنعل : **« كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم ، قد بينا الآيات لقوم يوقنون »**(٢٠) .

---

(١٩) الأنبياء : ٢٥ (٢٠) البقرة : ١١٨

« والابتداع .. قد يأتى بالشىء وضده معا .. ليفسد العقيدة الوسط ..

« فتسوية المخلوق بالخالق شرك يفسد عقيدة التوحيد .. وكذلك افناء الخلق فى الخالق .. ضلال لا أصل له فى هذه الملة .. وان كان ظاهره أنه غلو فى تقدير الله ، واغراق فى مبدأ التوحيد »[٢١] .

ثم يقول فضيلته — جزاه الله خيرا — عن « وحدة الوجود » :

« كنا نظن أن هذه الخرافة قد انتهت بانتهاء أصحاب الشطحات الذين اشتهروا فى التصوف القديم ..

« الا أن نفرا من عصاة المسلمين — فى عصرنا هذا — عندما يتركون حيـــاة المجون .. ويرغبون فى العـــودة الى الله ، تصيبهم لوثات غريبة ..

« فيحسبون أن من تمام توبتهم تغليب ذات الله على كل ما يعرض لهم من أشخاص وأشياء .. فتراهم يخرجون من أنفسهم .. ويسلخون العالم من خصائصه العتيدة .. وقد تتردد على ألسنتهم كلمة « الحلاج » عندما سئل : من فى الجبة ؟ .. فقال : الله !!

« ولمـــا كان من المتعذر بناء سلوك عملى على هذه الفكرة .. فان الجانحين اليها يكتفون بنوع من الجبر الذى يشـــل الارادة .. والتسليم لمـــا تفد به الأحداث .. ثم الحديث عن الله الكامن فى كل شىء حديث استكانة وذوبان ..

« وقد أصيب جمهور المسلمين برشاش من هذه الخرافة .. أوقف نمو المنطق المـــادى فى بلاد الاسلام .. وخلط بالالهيات أمورا كثيرة لا تمت اليها بسبب .

« ان العالم شىء يغاير الله — برغم ما يقوله فريق من المتصوفة — ولله عز وجل : ذاته وأســـماؤه ، وحقوقه التى فصلت تفصيلا فى كتبه المنزلة ..

---

(٢١) ليس من الاسلام ، للشيخ محمد الغزالى ، نشر دار الكتب الاسلامية ، ١٩٨٣ ص ١٦١ ، ١٦٢ .

« وهناك فرق كبير بين وحدة الوجود .. ووحدة الشهود .

« ان المرء قد يستغرق فى النظر الى مسألة ما ، استغراقا يذهله عما حوله .. وربما نودى — وهو فى بحار الفكر — فلا يسمع النداء ..

« فهل هذه الصورة من صور الانحصار الذاتى ، تعنى فناء ما حول الانسان لأن الانسان غائب عنه بفكره ؟ !

« والشمس تطلع فتغمر بأشعتها الساطعة أرجاء الكون ، فلا يمكنك أن ترى فى الأفق البعيد أو القريب نجما .. حتى اذا عاد الليل وانتشر ظلامه أخذت النجوم المختفية عن العين تلوح فرادى وجماعات ..

« هل غلبة أشعة الشمس عليها تعنى لمن لا يراها أنها معدومة ؟ !

« ان من المؤمنين الأخيار من يعيشون فى أنوار الله معيشة رفيعة .. رسخوا فى مقام الاحسان حتى ألفوا أطواره الزاهية ..

« ومقام الاحسان — كما عرفه رسول الله ﷺ — « أن تعبد الله كأنك تراه .. فان لم تكن تراه فانه يراك »[٢٢] .

« وهذا الاك يصح أن نطلق على حقيقته « وحدة الشهود » .. وهو منحى يغاير تمام المغايرة « وحدة الوجود » .. وان اختلط الأمران على القاصرين ..

« وأكثر الذين يعتنقون فكرة ما .. أو تسيرهم عاطفة خاصة .. يقيسون ما يلقاهم من شئون الحياة على شئونها .. ألا ترى الرجل الغزل يقول :

لا أرى الدنيا على نور الضحى بل أرى الدنيا على نور العيون

« فليس بعجيب أن يوجد مؤمنون تستولى على مشاعرهم عاطفة دينية .. تجعل نشاطهم كله محصورا فى مرضاة الله .. وتجعل نظرتهم للأمور من هذه الزاوية الخاصة وحدها ..

« بل فى هذا يساق الحديث المشهور عن رسول الله ﷺ .. أن الله تعالى قال[٢٣] : « من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب ..

---

(٢٢) رواه البخارى ومسلم . (٢٣) أى : فى الحديث القدسى .

وما تقرب الى عبدى بشىء أحب الى مما افترضت عليه .. وما يزال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه .. فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها .. ولئن سألنى لأعطينه .. ولئن استعاذنى لأعيذنه » ..

« فالحديث .. يشير الى مرتبة التفانى فى ارضاء الله تفانيا يجعل حواس المرء وجوارحه مسخرة فى طاعة الله وحده ..

« ولا يعنى — البتة — أن ادمان العبادة ينتهى بحلول ، أو اتحاد — كما يتصوره بعض السذج .. أو ينتهى على القليل بطور خارق للنواميس المعتادة .. كما صور ذلك المتصوفة فى حديث مكذوب : « عبدى .. أطعنى أجعلك ربانيا ، تقول للشىء : كن ، فيكون »[٢٤] .

* * *

● ويعقد المرحوم الشيخ محمد حسين الذهبى المقارنة بين الحال التى كان عليها المتصوفة فى القرون الأولى .. والحال التى أصبحوا عليها فى قرونهم المتأخرة .. فيحدثنا فضيلته عن الزهد الذى كان موجودا فى الصدر الأول للاسلام .. وكيف استفاد منه المتصوفة فى سلوكهم الصوفى .. ثم حالهم بعد أن أدخلوا علوم الفلسفة فى تصوفهم ، وكونوا لهم فلسفة خاصة بهم تدين بأفكار غريبة تماما عن الاسلام .. فدخل فى التصوف رجال من غير أهله .. تظاهروا كذبا بالورع والطاعة والزهد والتقشف .. فأفسدوا التصوف الاسلامى بعد أن حولوه الى مذهب فلسفى ..

يقول صاحب « التفسير والمفسرون » :

« التصوف — بالمعنى السالف [وكان رحمه الله يتحدث عن الزهد والتقشف] موجود منذ الصدر الأول للاسلام .. فكثير من الصحابة كانوا معرضين عن الدنيا ومتاعها .. آخذين أنفسهم بالزهد والتقشف .. مبالغين فى العبادة ..

---

(٢٤) المرجع السابق ص ١٦٢ — ١٦٤

« فكان منهم من يقوم الليل ويصوم النهار .. ومنهم من يشد الحجر على بطنه تربية لنفسه وتهذيبا لروحه ..

« غير أنهم لم يعرفوا فى زمنهم باسم الصوفية .. وانما اشتهر بهذا اللقب فيما بعد من عرفوا بالزهد والتفانى فى طاعة الله تعالى .. وكان هـذا الاشتهار فى القرن الثانى الهجرى .. وأول من سمى بالصوفى هو « أبو هاشم الصوفى » المتوفى سنة ١٥٠ هجرية ..

« وفى هذا القرن وما بعده .. تولدت بعض الأبحاث الصوفية .. وظهرت تعاليم القوم ونظرياتهم التى تواضعوا عليها .. وأخذت هذه الأبحاث تنمو وتتزايد كلما تقادم العهد عليها .. وبمقدار ما اقتبسه القوم من المحيط العملى الذى يعيشـون فيه تطورت هـذه الأبحاث والنظريات »[٢٥] .

ثم يقول رحمه الله : « ولقد اسـتفاد المتصوفة من الفلاسفة والمتكلمين والفقهاء ما كان له الأثر الأكبر فى هذا التطور الصوفى .. غير أنهم أخذوا من الفلسفة بحظ وافر .. بل وكونوا فلسفة خاصة بهم .. حتى أصبحنا نرى بينهم رجالا أشبه بالفلاسفة منهم بالمتصوفة .. وأصبحنا نرى بعضهم يدين بمسائل فلسـفية لا تتفق ومبادىء الشريعة .. مما أثار عليهم جمهور أهل السنة .. وجعلهم يحاربون التصوف الفلسفى ، ويؤيدون التصوف الذى يدور حول الزهد والتقشف وتربية النفس واصلاحها .. وما زال أهل السنة يحاربون التصوف الفلسفى حتى كادوا يقضون عليه فى نهاية القرن السابع الهجرى ..

« ومن ذلك الوقت .. دخل فى التصوف رجال من غير أهله .. تظاهروا بالورع والطاعة .. وتحلوا بالزهد الكاذب والتقشف المصطنع .. فأصبحنا نرى بعض الجهلاء الأميين يشرفون على الطريق .. ويتولون تربية الأتباع والمريدين .. ووقفت التعاليم الصوفية عند دائرة محدودة ،

---

(٢٥) التفسير والمفسرون ، للشيخ محمد حسين الذهبى ، نشر مكتبة وهبة ، ١٩٨٥ ، ج ٢ ص ٣٢٥

هى دائرة الأوراد والأذكار .. وان تعدتها ، فلا أكثر من بعض الأبحاث الضيقة فى الفقه والتفسير والحديث »[٢٦] .

* * *

● وعن هذا التطور الذى لحق بالصوفية .. نقرأ للامام القشيرى — وهو الرجل الذى لا يمكن أبدا اتهامه بالعداء للصوفية أو بكراهية الأولياء والصالحين — يقول القشيرى : « ثم اعلموا — رحمكم الله — أن المحققين من هذه الطائفة انقرض آخرهم .. ولم يبق فى زماننا هذا من هذه الطائفة الا أثرهم .. كما قيل :

أما الخيام فانها كخيامهم وأرى نساء الحى غير نسائها

« حصلت الفترة فى هـذه الطريقة ، بل اندرست الطـريقة بالحقيقة ..

« مضى الشيوخ الذين كانوا بهم اهتداء ، وقل الشباب الذين كان لهم بسيرتهم وسنتهم اقتداء .. وزال الورع وطوى بساطه ، واشتد الطمع وقوى رباطه .. وارتحل عن القلوب حرمة الشريعة ، فعدوا قلة المبالاة بالدين أوثق ذريعة .. ورفضوا التمييز بين الحلال والحرام ، ودانوا بترك الاحترام وطرح الاحتشام .. واستخفوا بأداء العبادات ، واستهانوا بالصـوم والصلوات .. وركضوا الى ميدان الغفلات ، وركنوا الى اتباع الشهوات ، وقل المبالاة بتعاطى المحظورات ، والارتفاق بما يأخذونه من السوقة والنسوان وأصحاب السلطان ..

« ثم لم يرضوا بما تعاطوه من سوء هذه الفعال ، حتى أشاروا الى أعلا الحقائق والأحوال .. وادعوا أنهم تحرروا من رق الأغلال ، وتحققوا بحقائق الوصال .. وأنهم قائمون بالحق تجرى عليهم أحكامه وهم محو .. وليس لله عليهم فيما يؤثرونه أو يذرونه عتب ولا لوم .. وأنهم كوشفوا بأسرار الأحدية ، واختلفوا عنهم بالكلية ، وزالت عنهم أحكام البشرية ، وبقوا بعد فنائهم عنهم بأنوار الصمدية .. والقائل

---

(٢٦) المرجع السابق والصفحة نفسها ..

عنهم غيرهم اذا نطقوا ، والنائب عنهم سواهم فيما تصرفوا بل صرفوا »[٢٧] .

هذا ما يقوله أحد أئمة الصوفية الأجلاء — قاله عام ٤٣٧ هجرية — وليس كلاما جديدا يمكن معه أن يتهم قائله بكراهية التصوف أو العداء للصوفية .. ولكنه التطور الذى لحق بالصوفية فى قرونها المتأخرة ، وأصبح لها فلسفتها الخاصة .. وتحولت من « تصوف أهل العلم » ، الى « تصوف الملاحدة » !!

* * *

● وعن انحراف « التصوف الاسلامى » فى مرحلته المتأخرة .. يحدثنا الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور فيقول : « ... أدى انحلال أحوال البلاد سياسيا واجتماعيا .. فى أواخر عصر المماليك الى انحراف الصوفية .. وتحولت حياة التصوف عن مثلها الى حياة مليئة بالمفاسد والرذائل الخلقية ..

« وبعبارة أخرى .. فقد تخلى الصوفية عن النظم والآداب التى عرفوا بها بين الناس .. فاختلت أوضاعهم ، وازداد عبثهم .. وصاروا موضع سخرية المجتمع ونقد العقلاء ..

« من ذلك أن أذكارهم غدت بصوت مسموع ويشترك فيها جماعة ، ومن ثم سميت السماعات .. ولم تلبث أن أصبحت الشبابة والمزمار والدف والرقص والتصفيق من مظاهر تلك السماعات .. فاذا دب معه « المتصوف » الطرب قليلا .. حرك رأسه كما يفعل أهل الخمر سواء بسواء .. ثم اذا تمكن الطرب منه .. ذهب حياؤه ووقاره .. فيقوم ويرقص ، وينادى ويبكى .. ويدخل ويخرج ، ويبسط يديه ويرفع رأسه نحو السماء كأنه جاءه المدد منها .. ويخرج الزبد من فيه .. وربما مزق بعض ثيابه وعبث بلحيته ..

« كذلك أنشأ مشايخ : الخانقاوات يمدون الأسمطة الفاخرة .. ويجمعون فى مجالسهم الأرذال وأصحاب المغانى والملاهى !!

---

(٢٧) الرسالة القشيرية ، مرجع سبقت الاشارة اليه ، ص ٢ ، ٣

« ومنهم من اعتاد أخذ أموال الوقف ليصرفها فى اللهو والخمر مع التجاهر بذلك .. بل ان بعضهم استحضر المرد(*) فى مجالسهم ، وزينوهم بالحلى والصبغات .. وزعموا أنهم انما أرادوا الاستشهاد على قدرة الله ، والاستدلال بالصنعة على الصانع !!

« ولم يلبث أن انتشر تعاطى الحشيش بين الصوفية .. حتى نسب اليهم وأصبح يعرف باسم « حشيشة الفقراء » .. وقد استنكر كثيرون ذلك الوضع الذى آل اليه أمر التصوف .. ومما قيل فى ذلك :

صـــوفية أحـــدثوا فى ديننا لعبـــا
وخالفوا الحق دين المصطفى العرب
من اقتـــدى بهم قـــد ضـــل مثلهم
ســـحقا لمذهبهم ، ولو كان من ذهب
أهـــل المراقص ، لا تأخـــذ بمذهبهم
فقد تمادوا على التمويه والكذب»(٢٨)

ثم يقول : « أما المقريزى .. فقد وصف الصوفية على أيامه — أى فى القرن التاسع الهجرى — بأنهم « لاينسبون الى علم ولا ديانة .. والى الله المشتكى » !

« ثم كان أن ازداد الوضع سوءاً فى العصر العثمانى .. وهو العصر الذى تعرض فيه المصريون لنكبات جمه عكست صـــورتها فى المجتمع .. ذلك أنه انتمى الى التصوف فى ذلك العصر كثير من الأدعياء ممن لا يوصفون بعلم أو دين .. حتى أن الشعرانى يذكر أنه تتلمذ على سبعين شيخاً .. لا يعرف أحدهم النحو !!

« وأدهى من ذلك وأمر .. أن الصوفية استهانوا بشعائر الدين وأصوله .. فأعرضوا عن الصـــلاة بدعوى أنهم يؤدونها فى الأماكن المقدسة !! .. كما أهملوا الصـــيام ، وأوهموا الناس أن التكاليف الدينية تسقط عن كل واصل !!

(*) جمع أمرد : وهو الصبى الذى لم ينبت له شارب أو لحية .

(٢٨) انظر : السيد البدوى .. شـــيخ وطريقة ، للدكتور ســـعيد عبـــد الفتاح عاشور — سلسلة اعلام العـــرب (٥٨) ، عام ١٩٦٦ ، ص ٢٢٧ وما بعدها .

« ولا أدل على استهانتهم بشعائر الدين .. أن بعضهم — مثل الشيخ تاج الدين الذاكر — كان يمكث بوضوء واحد سبعة أيام .. امتدت أواخر عمره الى أحد عشر يوما !!

« بل ان الشيخ أبو السعود الجارحي كان يتوضأ في أول رمضان .. فلا يعيد الوضوء الا بعد العيد بستة أيام !!

« ثم بلغ الاستهانة بالدين أن يلجأ المتصوفة الى اختلاق كلام عديم المعنى يزعمون أنه قرآن !! .. فيحكي الشعراني أن الشيخ شعبان المجذوب كان يجلس في المسجد أيام الجمع ويقرأ : « وما أنتم في تصديق هود بصادقين . ولقد أرسل الله بالمؤتفكات يضربوننا ويأخذون أموالنا ، وما لنا من ناصرين » !!

« كل ذلك دون أن يجرؤ أحد من الناس على الاعتراض عليه .. بل كانوا يعتقدون فيه ، ويعدون رؤيته عيدا عندهم !!

« أما الشيخ ابراهيم العريان .. فقد كان يصعد الى منبر المسجد عاريا ويخطب في الناس قائلا : « السلطان ودمياط ، وباب اللوق وبين الصورين وجامع طولون ، والحمد لله رب العالمين » .. فيخشع الناس لكلامه ، ويحصل لهم بسط عظيم »[٢٩] !! ..

ويقول الدكتور عاشور : « واذا كان هذا هو موقف الصوفية من مبادىء الدين .. فلا ينتظر منهم عندئذ أية رعاية لأبسط قواعد الأخلاق .. فاستباحوا لأنفسهم المحرمات على مرأى من الناس .. ومارسوا الزنا والخمر واللواط ، والميسر والحشيش .. دون أن يخشوا لومة لائم !!

« ويبدو أن عامة الناس أصابهم الرعب تحت تأثير الجهل ، وما أشيع عن الصوفية من كرامات كفيلة بأن تسحق من يتعرض لهم بقول أو فعل .. فتركوا الصوفية يمارسون حياتهم المنحرفة على مرأى منهم .. بل ربما بحثوا عن مبررات يبررون بها سلوكهم الشاذ ..

---

(٢٩) المرجع السابق .

« واستمرت هذه الأوضاع طويلا حتى القرن التاسع للميلاد .. مما جعل الجبرتى يقول فى المصريين وتقديسهم للمشايخ :

بعضهم قبل الضريح وبعض ... عتب البـــاب قبلوه وتربا
هكذا المشركون تفعل مع أصـ ... ـنامهـــم تبتغى بذلك قـــربا

« وزاد الطين بلة .. أن بعض الصـــوفية تطرفوا فى أقوالهم وأفعالهم .. فنشأت عن ذلك طوائف المجاذيب أو الدراويش .. الذين اشتهروا بأفعال غريبة زعموا أنها من الدين ، وما هى من الدين فى شىء .. ولكن : العاقل من عرف زمانه على قول الشعرانى »[٣٠] ..

ثم يقول سيادته : « وشهد الرحالة « بيرو تافور » — الذى زار مصر فى أواخر عصر المماليك — جماعة من هؤلاء الدراويش فى مصر ، وقد حلقوا رؤوســـهم ولحاهم وشعر الحواجب ، كما أزالوا رموش أعينهم .. فبدوا فى صورة مزعجة تشبه المجانين .. ويزعمون أن ذلك ضرب من التقوى والعبادة !!

« ومن أفعال ذلك النفر من الصوفية : أن يركب الواحد منهم فى قفص على رأس حمال .. ويتعمم « بشرطوظ » طويل جدا .. ويعاشر سفلة القوم ، ويزعم أن ذلك من الدين !!

« ومنهم من اعتاد أن يركب على قطعة خشب أو جريدة بعد أن يصور لها وجها وعينين ، وأنفاً وفماً .. ويمسك بيده شيئا كأنه سوط ، ويربط الجريدة بخيط كأنه لجام .. ويجرى على هذه الصورة المضحكة وسط شوارع القاهرة ، وهو يضرب دابته والناس يعتقدون فى بركته !!

« وقد أشار ابن خلدون الى هذه الطائفة من الصوفية بقوله : « ومن هؤلاء المريدين من المتصوفة قوم بهاليل معتوهون .. أشـــبه بالمجانين من العقـــلاء .. وهم على ذلك صحت لهم مقامات الولاية وأحوال الصديقين !!

---

(٣٠) نفس المرجع السابق .

« وكان أن استرعت هذه الأوضاع أنظار الفرنسيين وقت الحملة الفرنسية على مصر .. فأرسل سارى عسكر — وهو « كليبر » لأن « بونابرت » كان قد غادر البلاد الى وطنه — يسأل علماء المصريين ومشايخهم عن أولئك الذين يدورون فى الأسواق ، ويكشفون عن عوراتهم ، ويصيحون ويصرخون ، ويدعون الولاية ولا يصلون ولا يصومون ، ومع ذلك تعتقدهم العامة ..

« سألهم كليبر : هل هذا جائز فى دينكم .. أم محرم ؟

« فأجاب مشايخ المسلمين وعلماؤهم : ذلك حرام ومخالف لديننا وشرعتنا وسنتنا ..

« فشكرهم كليبر على ذلك .. وأمر الحكام بمنعهم والقبض على من يرونه كذلك .. فان كان مجنوناً ربط بالمارستان .. أو غير مجنون فاما أن يرجع عن حالته أو يخرج من البلد !!

« ولكن هيهات أن يتخلى عامة الناس عن عقائدهم فى سهولة .. وبخاصة فى بلد فشا فيه الجهل ، وعمه التأخر والركود .. وهكذا استمر أولئك الذين يدعون المشيخة فى غيهم وعبثهم ، وشجعهم الناس بالاعتقاد فيهم »[٣١] .

ويقول الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور : « ولا نريد أن نتتبع هذه الظاهرة الخطيرة التى مازالت بعض آثارها باقية ضعيفة حتى اليوم فى أجزاء من مجتمعنا .. وانما يكفى أن أختتم الكلام عن هذه الظاهرة بقصة طريفة رواها الجبرتى ، وحدثت فى القاهرة على أيام محمد على الكبير ..

« ذلك أنه وجدت فى القاهرة عندئذ — أى فى مستهل القرن التاسع عشر للميلاد : امرأة يقال لها الشيخة رقية .. كانت تلبس مئزرا أبيض وبيدها عصا من الخيزران ، وبيدها الأخرى مسبحة طويلة .. وتطوف بهذه الصورة على بيوت الأعيان .. وقد اعتقد فيها نساء

---

(٣١) المرجع السابق نفسه .

الأكابر الصـــلاح والتقوى .. وكانت تدخـــل البيوت وتخلو بهن ، ويسألنها الدعاء لهن ..

« بل لقد اعتقد الرجال وبعض الفقهاء فى صلاحها وبركتها ..

« وكان أن توفيت الشيخة رقية .. فحزن الناس ، وعم القاهرة حزن عميق على وفاة تلك الشيخة الصالحة .. وأخذ الناس يتحدثون عن بركتها وكراماتها ..

[ويفاجئنا الجبرتى — فى عبارات جريئة نمسك عن ذكرها حرصا على حياء العذارى — يفاجئنا بالمفاجأة القاسية التى حدثت بعد ذلك .. اذ أنهم لمـــا أرادوا تغسيل الشيخة رقية اكتشفوا أنها كانت رجلا احتال بهذه الحيلة ليتمكن من مخالطة النساء فى خدورهن !! وأترك لكم — أيها الاخوة — أن تتخيلوا كيف كان حال الرجال الذين كانت الشيخة تتردد على نسائهم ، وتقضى الأوقات الطويلة فى خدورهن .. بعد أن انكشفت الحقيقة المذهلة لهذه الشيخة التى اعتقد الناس فيها الصلاح والتقوى .. يلتمسون بركتها ويسألونها الدعاء] !!

ويختتم الدكتور عاشور كلامه بقوله : « على أنه اذا كانت غالبية الصوفية منذ أواخر عصر سلاطين المماليك قد انحرفت عن جادة الصواب .. فانه ينبغى أن نذكر دائما أن هناك قلة منهم حافظت على صلاحها ومبادئها المثاليـــة النقية .. وهؤلاء ظلت زواياهم مراكز للعبـــادة والتثقيف ، وتطهير القلوب ، وتنقية الضمائر وتهيئة النفوس بعـــد تصفيتها لاذاعة الخير والمعروف »[٣٢] ا هـ .

* * *

● وينبرى فضيلة الشيخ « محمد زكى ابراهيم »[٣٣] للرد على اتهام الصوفية بالانحراف الى العقائد المتعارضة مع عقيدة « التوحيد» كالحلول ، والاتحاد — ولكن فضيلته لم ينف فى دفاعه — وجود مثل

---

(٣٢) المرجع السابق ص ٢٣٣

(٣٣) شيخ الطريقة المحمدية الشاذلية ، ورائد العشيرة المحمدية .

هذه الأفكار ، وان راح ينسبها الى الحفريات التاريخية التى اندثرت وعفا عليها الزمن ..

يقول فضيلته : « ... أما أن التصوف يدعو الى عقائد الحلول والاتحاد والوحدة .. فليس هذا هو تصوف المسلمين .. وانما هو تصوف أجنبى أعجمى مدسوس .. والمتهمون به نفر معدود محدود .. انتهى أمرهم وليس لهم اليوم تابع ولا وارث .. وأصبح ما نسب اليهم — بحق أو بباطل ، سواء قبل التأويل أو لم يقبله — نوعا من الحفريات التاريخية التى لا يتابعها الا الهواة والمتخصصون — أن وجد اليوم هواة ومتخصصون فى البحث عن مقابر الأفكار المهملة — والا أصحاب الهوى الذى يعمى ويصم .. ولا اعتبار لأولئك ولا هؤلاء ..

« وقد أصبح الكلام اليوم فى هذا الجانب .. نوعا من مجرد الاثارة والتشويه ، والعبث واضاعة الأوقات والتشويش على أفاضل الناس .. وشراء العاجلة بالآجلة ..

« وانما يقول الصوفية بنوع معين من الفناء .. فصله الشيخ « ابن تيمية » فى رسائله بشىء من الانصاف .. وأشار اليه الشيخ « ابن القيم » فى شرحه على كتاب « الهروى » .. وشتان ما بين هذا والقول الفاجر بالحلول ، والاتحاد ، والوحدة المنكرة »[٣٤] .

* * *

(٣٤) راجع مجلة « التصوف الاسلامى » العدد ٧٠ — مرجع سبقت الاشارة اليه — ص ٤٥

رأينا .. فى مسألة التصوف الاسلامى

كان ابن تيمية — رحمه الله — مع وفرة اطلاعه وشدة اخلاصه لاسلامه ولجماعته الاسلامية حاد المزاج .. وسرعان ما تنتقل حدة المزاج الخصومة والحكم فى مجال الجدل العقلى ، أو الدينى .. الى مجال الأشخاص وحياتهم الخاصة .. وما يدور فى نفوسهم أو يخلد فى قلوبهم من عقيدة وايمان ..

ولهذا كان — ابن تيمية — عنيفا فى مهاجمته لتصوف الملاحدة — كما أسماه — ، فحين هاجم العقائد .. هاجم الأشخاص الذين أسندت اليهم ..

أما ولى الدين العراقى .. فقد سلك مسلكا آخر فى تعرضه لأفكار ابن عربى .. فقال فى « الأجوبة المرضية » : « أما ابن عربى .. فلا شك فى اشتمال « الفصوص » المشهورة عنه على الكفر الصريح الذى لا شك فيه ، وكذا « فتوحاته المكية » .. وينبغى عندى أن لا يحكم على ابن عربى فى نفسه بشىء ، فانى لست على يقين من صدور هذا الكلام عنه ، ولا من استمراره عليه الى وفاته .. ولكنا نحكم على هذا الكلام بالكفر » ..

ونحن .. نؤثر مسلك « ولى الدين » على ما سلكه ابن تيمية .. فنقول : « ان المبادىء التى نادى بها أولئك الناس ، وأدخلوها على تصوفهم .. تشتمل على الكفر الصريح الذى يضاد توحيد الاسلام .. ولكنا لا نتعرض لأشخاصهم بكفر ولا ايمان .. انما نكل أمرهم الى الله تعالى .. يحكم فيهم بما يشاء ، فقد أفضوا اليه وقدموا على ما قدموا ..

ولا يمنعنا هذا من أن نقول : ان الله تعالى قد قال وهو أصدق القائلين : **« يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك ، وان لم تفعل**

فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس ، ان الله لا يهدى القوم الكافرين »[1] .

فأمر رسوله ﷺ أن يبلغ للناس ما أنزل اليه ، ولا يكتم منه شيئا .. فان لم يفعل فما بلغ الرسالة ، ولا أدى الأمانة ..

ثم أمرنا تعالى باتباع ما أمر به الرسول ﷺ ، واجتناب ما نهى عنه .. فقال تعالى : « **وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا** »[2] .

بل انه تعالى أقسم بذاته .. نافيا الايمان عمن يأبى الرجوع الى الرسول ﷺ فيما يعترضه من خلاف فى الرأى أو العقيدة أو الدين ، وفى سائر العبادات والمعاملات .. ويكون ذلك بتحكيمه ﷺ حال حياته ، وبالرجوع الى سنته بعد وفاته ..

وغلظ تعالى فى ذلك ، فنفى الايمان عمن يحكم الرسول فى شأن من شئونه ، ثم يجد فى صدره ضيقا مما يقضى به الرسول أو تقضى به السنة المطهرة ..

فالمؤمن كامل الايمان — كما وصفه الله تعالى — هو الذى يرجع الى الرسول ﷺ .. والى سنته المطهرة فى كل شأن من شئونه .. مستلهماً الحل لما يعترضه من أمور فى كتاب الله وسنة رسوله .. ثم يرضى كل الرضا بالحل الاسلامى ويسلم تسليما ..

يقول تعالى : « **فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما** »[3] .

والتسليم لا يكون الا بنبذ الارادة تماما اذا تعارضت مع حكم الله أو حكم رسوله .. وقد وصف تعالى من لا يحكم بما أنزله بالكفر ، والظلم ، والفسوق .. نعوذ بالله من ذلك ..

---

(١) المائدة : ٦٧ (٢) الحشر : ٧

(٣) النساء : ٦٥

وقد أدى الرسول ﷺ الأمانة : وبلغ الرسالة ، ونصح الأمة ، وجاهد فى الله حق جهاده .. ولم يكتم شيئا مما أنزله الله عليه .. ولهذا نراه يكرر أكثر من مرة فى حجة الوداع ، وبعد تقرير كل أصل من أصول العقيدة .. يكرر كلمته المشهورة : « ألا هل بلغت » ؟ .. فيقول الناس : نعم يارسول الله . فيقول ﷺ : « اللهم فاشهد » ...

ويقول ﷺ : « تركتكم على المحجة البيضاء .. ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها الا هالك » ..

وعن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد »(٤) .

وفى رواية لمسلم : « من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد » ..

وعن جابر رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ اذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه حتى كأنه منذر جيش يقول صبحكم ومساكم .. ويقول : « بعثت أنا والساعة كهاتين » — ويقرن بين أصبعيه السبابة والوسطى — ويقول : « أما بعد .. فان خير الحديث كتاب الله ، وخير الهدى هدى محمد — ﷺ — وشر الأمور محدثاتها .. وكل بدعة ضلالة »(٥) .

وقال ﷺ : « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى ، عضوا عليها بالنواجذ .. واياكم ومحدثات الأمور ، فان كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة » .. رواه الستة وزاد أبو داوود : « وكل ضلالة فى النار » ..

فليس هناك بدعة حسنة وأخرى سيئة .. انما كل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار ..

ولهذا يقول الامام مالك رضى الله عنه : « من ابتدع فى الاسلام بدعة يراها حسنة ، فقد زعم أن محمدا ﷺ خان الرسالة ، لأن الله

---

(٤) متفق عليه .

(٥) رواه مسلم .

جل شـــأنه يقول : « **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا** »(٦) .

لقد أكمل الله لنا الدين .. وأتم النعمة .. ورضى لنا الاسلام دينا ، وأطلق علينا اسم المسلمين دون ســائر الأسماء .. فقال وهو أصدق القائلين : « **هو سماكم المسلمين من قبل** »(٧) .

تعالوا الى كتاب الله .. هل جاء فيه ذكر للتصوف أو الصوفية ؟ لم يرد ذلك فى آية واحدة منه !!

تعالوا الى سنة رســول الله ﷺ .. هل فيهــا ذكر للتصوف أو الصوفية ؟

لم يذكرها ﷺ مرة واحدة !!

والقرآن الكريم .. لم يغادر كبيرة ولا صغيرة الا أحصاها ..

والرسول ﷺ لم يترك كبيرة ولا صغيرة .. سواء فى أمر ديننا أو دنيانا الا وتعرض لها وبينها ..

فلماذا لم يرد ذكر للتصوف أو الصوفية فى كتاب الله أو فى سنة رسوله ان كان لهما أصل فى الاسلام ؟ !

هل عرف الصحابة رضوان الله عليهم الصوفية أو التصوف ؟ !

هل قال الصحابة رضوان الله عليهم بوحدة الوجود .. وأن الوجود حقيقة واحدة لا فرق فيها بين الحق والخلق ؟ !

هل قال واحد من الصحابة أن خالق الأشياء هو عين هذه الأشياء ؟ !

لم يقل بذلك واحد منهم !!

يقول تعالى : « **وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون** »(٨) .

فلماذا لا نتبع الصراط المستقيم ؟ !

---

(٦) المــائدة : ٣ (٧) الحج : ٧٨

(٨) الأنعام : ١٥٣

ويقول جل شأنه : « **قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم** »[٩] .

فلماذا لا نتبع الرسول فنظفر بحب الله ونفوز بغفرانه ؟ !

يقول سبحانه : « **لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر** »[١٠] .

فلماذا لا نتأسى بالرسول ونتخذ منه الأسوة الحسنة ؟ !

ويقول جل وعلا : « **فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم** »[١١] .

فلماذا نخالف عن أمره ، ونتعرض للفتنة تصيبنا وللعذاب الأليم ينزل بنا ؟ !

الله تعالى يقول لنا : « **انما كان قول المؤمنين اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا ، وأولئك هم المفلحون** »[١٢] .

فلماذا ننأى عن الفلاح .. ونأبى أن نقول لله ولرسوله « سمعنا وأطعنا » ؟ !

لماذا نترك الطريق الواضح ، والمحجة البيضاء .. ونتبع الطرق المتشعبة ، والمسالك الوعرة ؟ !

لماذا لا نتدبر قول الله تعالى : « **هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله الا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ، وما يذكر الا أولوا الألباب** »[١٣] ؟ !

---

(٩) آل عمران : ٣١
(١٠) الأحزاب : ٢١
(١١) النور : ٦٣
(١٢) النور : ٥١
(١٣) آل عمران : ٧

فلمـــاذا نبتغي الفتنة ، فندع الآيات المحكمات ونســـير وراء المتشابهات ؟ !

لمـــاذا لا نعقل تحذيره تعالى لنا : « **ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا** »(١٤) ؟ !

فلماذا نحل عرا الاسلام بأيدينا •• ونفسد أعمالنا بأنفسنا ؟ !

لمـــاذا نأبى الا أن نحشر أنفسنا مع « **الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا** »(١٥) ؟ !

عن الحسن بن على رضى الله عنهما قال : حفظت عن رسول الله ﷺ قوله : « دع ما يريبك الى ما لا يريبك »(١٦) .

وعن النعمان بن بشير رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ان الحلال بين ، وان الحرام بين •• وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس •• فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه •• ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام : كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه •• ألا وان لكل ملك حمى •• ألا وان حمى الله محارمه •• ألا وان فى الجســـد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله •• واذا فسدت فسد الجسد كله : ألا وهى القلب »(١٧) .

فلماذا ننأى عن الصراط المستقيم ، ونبعد عن الطريق الواضح ؟ !

لمـــاذا نتبع السبل التى تبعدنا عن تعاليم الاسلام الذى شرفنا الله بالانتساب اليه ؟ !

لمـــاذا ندخل على عقيـــدتنا الخرافات والأســـاطير التى تجعلنا أضحوكة للأمم ؟ !

لمـــاذا ينسب البعض منا لأنفسهم المعجزات والخوارق فيدعون القدرة على التصرف فى أمور الناس •• يعطونهم ويمنعونهم ، يحيون من يشاءون ويميتون من يريدون ، ويسلبون الناس ايمانهم ويمنحونهم

---

(١٤) النحل : ٩٢ (١٥) الكهف : ١٠٤

(١٦) رواه الترمذى . (١٧) متفق عليه .

اياه ؛ يمشون على المـاء ويطيرون فى الهواء ، يحولون التراب ذهبا ويحيلون خصومهم مسوخا وحيوانات ؟ !

لمـاذا يدعى البعض منا العلم بالغيب وانكشاف الحجب عنهم ، فيشركون أنفسهم فى خاصية هى لله وحده ، لم تتأت لملك أو نبى ، ولم تتح لانسى أو جنى ؟ !

هل هذا هو الدين الحق منذ بعث الله الرسل الى أن يرث الأرض ومن عليها ؟ !

هل هذا هو الاسلام الذى أنزله تعالى على محمد بن عبد الله ﷺ ؟ !

* * *

وبعد .. فأياً ما كان الأمر بالنسبة لما يسمى بالتصوف الاسلامى .. فانه ليس أمامنا الا التسليم بالوجود الصوفى فى المجتمع الاسلامى قديما . وبتواجده فيه حديثا !!

واذا كنا نسلم بأن للصوفيين عقائدهم وأفكارهم ومصطلحاتهم وتصوراتهم — بغض النظـر عن خروجها على تعاليم الاسـلام أو اتفاقها معه !!

واذا كان لنا التسليم — مع الدكتور سعيد عاشور — بأنه لا تزال قلة منهم تحافظ على صلاحها ومبادئها المثالية النقية .. وبالرغم من كل شىء !!

فاننا لا نملك — أبداً — التسليم ببعض هذه العقائد والأفكار ، بحكم أننا ندين بالاسلام .. دين التوحيد الكامل ..

ان ما يعنينا هو أمر الكثرة الساحقة وليس القلة التى لا تزال تحافظ على صلاحها ومبادئها المثالية النقية ..

لهـذا .. نختلف مع الصوفية فى زعمهم بوحدة الوجود ، كمـا نخالفهم فى مذهبهم فى التفسير الباطنى للقرآن الكريم ..

نختلف معهم فى عقيدتهم فى الوحى والنبـــوة ، ونخالفهم فى رؤيتهم للمعجزة والولاية والكرامة ..

نختلف معهم فى مذهبهم فى تعظيم القبور وتقديس المقبورين .. ولا نقرهم فى تصورهم للتوسل والوسيلة ..

نختلف معهم فى طريقة أداء الأذكار التى يتبعونها ، فيحولون حلقات الذكر الى حفلات للزار يأتون فيها كل شىء الا الذكر الذى دلنا على كيفيته الرسول ﷺ ..

هـــذه العقائد والأفكار التى نخالفهم فيها ولا نقرهم عليها .. يرفضها الفكر الاسلامى الصحيح لمجافاتها لعقيدة التوحيد التى أعلا الاســـلام رايتها ..

* * *